﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

وجه الربط بين الآيات (١٤٤ و١٤٧): كان النّبيّ ﷺ يتشوّق لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، لأنّها قبلة أبيه إبراهيم، ولأنّها أدعى إلى إيمان العرب، وهم الذين عليهم المعوّل في إظهار هذا الدّين، ولأنّ اليهود كانوا يقولون: يخالفنا في ديننا ويتّبع قبلتنا، ولولا ديننا لم يدر أين يستقبل القبلة؟ فكره النّبيّ ﷺ قبلتهم، حتّى روي أنّه قال لجبريل: وددت لو أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها[1]. فتمنّى النّبيّ ﷺ أن يتغيّر اتجاه القبلة، وقد توجّه إلى الله تعالى بقلبه ولم يطلب ذلك بلسانه. فاستجاب له ربّه تبارك وتعالى وقالت السّيدة عائشة ﵂: «إنّي أرى ربّك يسارع في رضاك». قال أبو حيّان: ولمّا كان ﷺ هو المتشوّف لأمر التّحويل بدأ بأمره أولًا، ثمّ أتبع أمر أمّته ثانيًا، لأنّهم تبع له في ذلك، ولئلّا يُتوهّم أنّ ذلك ممّا اختُصّ به ﷺ.

سبب نزول الآية (١٤٦): ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾:

نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، كانوا يعرفون رسول الله ﷺ بنعته وصفته وبعثه في كتابهم، كما يعرف أحدهم ولده، إذا رآه مع الغلمان، قال عبد الله بن سلام: لأنا أشدّ معرفة برسول الله ﷺ منّي بابني، فقال له عمر بن الخطاب ﵁: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأنّي أشهد أنّ محمّدًا رسول الله حقًّا يقينًا، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأنّي لا أدري ما أحدث النّساء، فقال عمر ﵁: وفّقك الله يا ابن سلام.

المعنى العام

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

يقول الحقّ ﷻ لنبيّه ﷺ حين تمنّى أن يُحوّل إلى الكعبة، لأنّها قبلة أبيه إبراهيم ﵇ وأدعى إلى إسلام العرب، وهي أقدم القبلتين، فكان ينظر إلى السّماء، ويقلّب وجهه فيها انتظارًا لنزول الوحي، وهذا من كمال أدبه ﷺ حيث انتظر ولم يطلب، فقال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ ربّما نرى تردّد وَجْهِكَ فِي السَّماءِ انتظارًا للوحي، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ

(١) ذكره الواحديّ في أسباب نزول القرآن، باب: أسباب النزول، ج١، ص٢٦.

﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فلنعطينّك ما تمنّيت، ولنوجّهك إلى قبلة تَرضاها وتحبّها لمقاصد دينيّة وافقت المشيئة، واقتضتها الحكمة، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إجعل وجهك مواليًا جهة الْمَسْجِدِ الْحَرامِ.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: "كان النّبيّ ﷺ إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السّماء، فأنزل الله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فولِّ وجهك إلى الكعبة، أي إلى الميزاب، يؤمّ به جبرائيل" عليه السلام [1].

وعَنْ يَحْيَى بْنِ قَمْطَةَ، قَالَ: "رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بِإِزَاءِ الْمِيزَابِ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ قَالَ: "نَحْوَ مِيزَابِ الْكَعْبَةِ"[2] ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أيّها المؤمنون أي في أيّ مكان كنتم ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ جهته.

أمر الله تعالى باستقبال الكعبة من جميع الاتّجاهات، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، دون استثناء، إلا في حالات محدّدة:

- **صلاة النافلة في السفر:** يجوز أداؤها حيثما وُجّه المصلّي، على أن يكون قلبه متوجّهًا إلى الكعبة.
- **المسايفة في القتال أو في صلاة الخوف والفزع:** تُؤدّى الصّلاة بأي هيئة ممكنة.
- **من جهل جهة القبلة:** يجتهد في تحديدها، فإن أخطأ فهو معذور، لأنّ الله لا يكلّف نفسًا إلا وسعها.
- ذكر الله ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ﴾ أي جهته، وليس عين الكعبة، لأنّ النّبيّ ﷺ كان في المدينة، ومن كان بعيدًا يكفيه مراعاة الجهة، بخلاف القريب الذي يمكنه استقبالها بدقّة. وقيل إنّ جبريل عليه السلام حدّدها للنّبيّ ﷺ بالوحي، فسُمّيت "قبلة وحي".

رُوِيَ أنّه ﷺ قدم المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر شهرًا، ثمّ وُجّه إلى الكعبة في رجب بعد الزّوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلّى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظّهر، فتحوّل في الصّلاة، واستقبل الميزاب، وتبادل الرّجال والنّساء صفوفهم، فسُمّي مسجد القبلتين [3].

وقوله عزّ وجلّ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من أحبار اليهود، ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعلمون أنّ الله تعالى سيوجّهك إلى الكعبة، وهو حقّ من ربّهم لما يجدون في كتابهم أنّه يصلّي إلى القبلتين، ولمّا جاء عن أنبيائهم من النّعت والصّفة لرسول الله ﷺ وأمّته، وما خصّه الله تعالى به وشرّفه من الشّريعة الكاملة العظيمة، فإنّ من عادته تعالى تخصيص كلّ أمّة بشريعة، ولكنّ أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا، ولهذا تهدّدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من التّعنّت والعناد، وإنّما يمهلهم ليوم المعاد. أمّا من مات قبل التّحويل إلى الكعبة، فإنّ الله لا يضيع أجر عمله ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [4].

---

(١) رواه المخلص في المخلصيّات، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ١٢٠٧، ج٢، ص١٣٢.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، عن يحيى بن قمطة، حديث رقم: ٣٠٦٥، كتاب: التفسير، باب: بسم الله الرحمن الرحيم من سورة البقرة، الحديث إسناده صحيح.

(٣) ذكره الثعلبيّ في تفسيره، ج٢، ص١٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

عندما تحوّلت القبلة إلى الكعبة غضبت اليهود، حيث ترك ﷺ قبلتهم، وقالوا مكابرة وعنادًا: لو بقي على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النّبيّ المبعوث في آخر الزّمان فنتّبعه، فردَّ الله ﷻ عليهم وكذّبهم: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ والله لئن أتيتهم بكلّ حجّة وبرهان على صحّة التّوجّه إلى الكعبة ما تبعوا قبلتك يا محمّد، لأنّهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجّة، وإنّما خالفوك مكابرة وعنادًا، وقد طمعوا أن ترجع إلى قبلتهم، ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ ولست بتابع قبلتهم أبدًا، بل لهم قبلتهم صخرة بيت المقدس، وللنّصارى قبلتهم مطلع الشّمس، أي الشرق لأنها أشرف الجهات، لأنَّ مريم عليها السلام لما ولدت عيسى عليه السلام اتّجهت به مكانًا شرقيًّا، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وليس بعضهم بتابع قبلة بعض، لتصلّب كلّ حزب بما هو فيه، وإن كان على خطأ وفساد، لأنّ مفارقة العوائد هنا صعب على النّفوس إلا من سبقت له العناية. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة وآراءهم الزّائفة فَرْضًا وتقديرًا، ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الواضح والوحي الصّحيح، ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لكنّك معصوم، فلا يُتصوّر اتّباعك لهم أبدًا.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود، ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي يعرفون الرّسول ﷺ وإن لم يتقدّم ذكره، لدلالة الكلام عليه أو القرآن أو التّحويل، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فهم لا يشكّون في صحّة رسالته، كما لا يشكّون في معرفة أبنائهم. ويُروى عن عمر رضي الله عنه أنّه قال لعبد الله بن سلام: أَتَعْرِفُ مُحَمَّدًا كما تعرف إبنك؟ قَالَ، نَعَمْ وَأَكْثَرَ، بعث الله أَمِينهُ في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمّه[٢]، وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ من بين أبناء النّاس كلّهم، لا يشكّ أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أَبْنَاءِ النَّاسِ كُلِّهِمْ.

وبعد حصول هذه المعرفة لهم جحدوه وكتموا صفته، إلّا مَن عصمه الله بالإيمان كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ وهم أحبارهم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه الحقّ، حسدًا وعنادًا.

وهذا الذي أنت عليه يا محمّد هو ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشّاكّين في أنّه الحقّ، أو في كتمانهم الحقّ عالمين به. والخطاب مصروف للسّامعين، لا للنّبيّ ﷺ لأنّه غير مُتوقّع منه، وإنّما المراد تحقيق الأمر، وإنّه بحيث لا يشكّ فيه ناظر، أو أمر الأمّة باكتساب المعارف المزيحة للشّك على الوجه الأبلغ.

(٢) ذكره القرطبيّ في تفسيره، باب: سورة البقرة، الآية: ١٤٧، ج٢، ص١٦٣

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. حَفِظَ ﷺ الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنَّاه من أمر القبلة بقلبه، فَلاحَظَ السّماءَ كونها طريق جبريل عليه السلام، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي علمنا سؤلك عمَّا لم تُفْصِحْ عنه بلسان الدّعاء، فلقد غيَّرنا القِبْلَةَ لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب.

٢. كلّ العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ولكن لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بالأحجار والآثار، وأَفْرِد قلبك لي، ولتكن القِبلةُ مقصودَ نَفْسِك، والحقُّ مشهودَ قلبك، وحيثما كنتم أيّها المؤمنون فولّوا وجوهكم شطره، ولكن أَخْلِصوا قلوبَكم لي وأَفرِدوا شهودكم بي.

٣. عظيم منزلة رسول الله ﷺ عند الله تعالى فهو ﷺ يسارع في رضاه.

٤. صحّة صلاة من صلّى إلى غير القبلة وهو لا يعلم ذلك، وله أجرها وليس عليه إعادتها، ولو صلّى شهورًا إلى غير القبلة، ما دام قد اجتهد في معرفة القبلة ثمّ صلّى إلى حيث أدّاه اجتهاده.

٥. وجوب استقبال القبلة في الصّلاة وفي أيّ مكان كان، فعلى المصلّي أن يتّجه إلى جهة المسجد الحرام.

٦. لمّا ذكر الله تعالى ما قاله سفهاء اليهود عند تحويل القبلة، ذكر في هذه الآيات أنّ إعراض أهل الكتاب عن رسالة النّبيّ ﷺ، لم يكن لشبهة تحتاج إلى إزالة، وإنّما لعناد ومكابرة، وفي ذلك تسلية للنّبيّ ﷺ من جحود أهل الكتاب الذين طمع في إسلامهم، وتضايق من تكذيبهم.

٧. حرمة موافقة المسلمين أهل الكتاب على بدعة من بدعهم الدّينيّة مهما كانت.

٨. يعرف علماء أهل الكتاب المعاصِرينَ للنّبيّ ﷺ أنّه هو النّبيّ المبشّر به، وأنّه خاتم الأنبياء، ومع ذلك أعرضوا عن الإيمان به، وعن متابعته، إيثارًا للدّنيا على الآخرة.

الاستدلال بأخبار الرسل السابقين بصفاته وانطباقها عليه تمامًا:

جميع الرسل إخوة، أُرسلوا برسالة واحدة هي رسالة التوحيد، وكان من تمام رسالتهم الإيمان بمن سبقهم من الرسل، والدعوة للإيمان بمن يأتي بعدهم، إن لم تكن رسالتهم خاتمة الرسالات.

ولأنّ الله ختم رسالات السّماء برسالة محمد ﷺ، فقد بشّرت التوراة والإنجيل ببعثته، لي حثّ أتباعهما على الإيمان به عند ظهوره.

من كان مؤمنًا باليهودية أو المسيحية واطّلع على البشارات الواردة في كتبهم، التي تصف النّبيّ الخاتم، ثمّ وجد هذه الصفات منطبقة على سيّدنا محمّد ﷺ، فإنّه لا يملك إلا الإيمان به، إلا إذا حجبه التعصّب، أو الحسد، أو الخوف على المنافع والمناصب.

ولذلك، يكشف القرآن حقيقة علماء أهل الكتاب بأنّهم يعرفون محمّدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، من خلال صفاته المدوّنة في التوراة والإنجيل الدالّة على بشائر النّبيّ المنتظر ﷺ.

في التّوجّه إلى الكعبة، ما المراد بالمسجد الحرام في القرآن الكريم؟

الحكم الأوّل: معاني المسجد الحرام

ورد ذكر المسجد الحرام في آيات متفرّقة في القرآن الكريم وفي السّنّة المطهّرة أيضًا، وقُصد به عدّة معانٍ:

الأوّل: الكعبة المشرّفة كما قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1] يعني جهة الكعبة المشرّفة، وقال تبارك وتعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾[2].

الثّاني: يطلق المسجد الحرام على المسجد كلّه، لحديث رسول الله ﷺ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»[3]، وقوله: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى»[4].

الثّالث: يطلق المسجد الحرام على مكّة المكرمة كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[5]، إذ كان الإسراء من بيت أمّ هانئ من مكّة وليس من المسجد نفسه.

الرّابع: يطلق المسجد الحرام على الحرم كلّه، يعني: مكّة وما حولها من الحرم؛ لأنّ حدود الحرم أوسع من حدود مدينة مكّة، وحدود الحرم تبدأ من العلامات المنصوبة التي تفصل بين الحِلّ والحرم، فالمسجد الحرام قد يطلق على الحرم كلّه، يعني مكّة وما حولها من حدود الحرم، والدّليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[6]. والمراد منعهم من دخول الحرم نفسه.

الحكم الثّاني: هل الواجب استقبال عين الكعبة أم جهتها؟

لا خلاف بين العلماء في وجوب استقبال الكعبة في الصّلاة وأنّه شرط من شروط صحّة الصّلاة، ولا تصحّ الصّلاة بدونه إلا ما جاء في صلاة الخوف والفزع وفي صلاة النّافلة على الدّابّة أو السّفينة، فله أن يتوجّه حيث توجّهت به دابّته، لما روي عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: "كَانَ النَّبِيّ ﷺ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ تَطَوُّعًا أَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ"[7]، وإنّما اختلفوا في وجوب استقبال عين الكعبة أم جهتها على قولين:

القول الأول: الواجب استقبال عين الكعبة وهو قول الشّافعي، واستدلّ بما يلي قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[8].

القول الثّاني: الواجب استقبال عين الكعبة لمن كان معاينًا للكعبة ولمن كان غائبًا عنها، جهتها، والمراد لمن كان حاضرها إصابة عينها، ولمن كان غائبًا عنها النّحو الذي هو عنده أنّه نحو الكعبة وجهتها في غالب ظنّه، بمعنى قصد الإصابة مع التّوجّه إلى الجهة، لأنّه معلوم أنّه لم يكلّف إصابة العين إذ لا سبيل له إليها. وبهذا قال الجمهور واستدلّ بما يلي:

١. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ»[9]. وظاهر الحديث أنّ جميع ما بينهما قبلة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤. (٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١١٩٠، كتاب وباب: فضل الصّلاة في مسجد مكة والمدينة.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١١٨٩، كتاب وباب: فضل الصّلاة في مسجد مكة والمدينة.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١. (٦) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٧) رواه التّرمذيّ في سننه، عن ابن عمر، حديث رقم: ٢٩٥٨، كتاب وباب: أبواب تفسير القرآن، الحديث حسن صحيح.
(٨) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.
(٩) رواه الحاكم في المستدرك، عن ابن عمر، حديث رقم: ٧٤١، كتاب: الطهارة، باب: في فضل الصلوات الخمس، الحديث صحيح.

٢. لو كان الفرض إصابة العين، لما صحّت صلاة أهل الصفّ الطّويل على خط مستوٍ، ولا صلاة اثنين متباعدين يستقبلان قبلة واحدة.

الحكم الثّالث: أين ينظر المصلّي وقت الصّلاة؟

- يستَحبّ أن يكون نظره الى مَوضِع سُجُوده، وهو مذهب الجمهور.
- وَقَالَ مَالك يكون نظره أَمَام قبلته لقوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ .

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

فرقٌ بين تأليف قلوب المدعوّين واتّباع أهوائهم بسخط الله، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فلنكن ثابتين على مبادئنا فإن " الخطأ يبقى خطأً ولو فعله كل الناس، والصواب يبقى صواباً ولو فعله القليل من الناس. "

في السّيرة والشّمائل

قصّة سلمان الفارسيّ

كان سَلمَانُ الفَارِسِيُّ رضي الله عنه رَجُلًا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، وَكَانَ أَبُوهُ زَعِيمَ قَرْيَتِهِ وَيُحِبُّهُ كَثِيرًا، فَحَبَسَهُ فِي بَيْتِهِ حِرْصًا عَلَيهِ. كَانَ سَلمَانُ مُتَدَيِّنًا بِالمَجُوسِيَّةِ، وَيَعمَلُ فِي إِيقَادِ النَّارِ. وَفِي يَومٍ خَرَجَ لِضَيْعَةِ أَبِيهِ، فَمَرَّ بِكَنِيسَةٍ لِلنَّصَارَى، فَأُعْجِبَ بِعِبَادَتِهِمْ، وَشَعَرَ أَنَّ دِينَهُمُ الحَقُّ. فَلَمَّا عَادَ إِلَى أَبِيهِ، أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَحَبَسَهُ وَقَيَّدَهُ، فَهَرَبَ وَالْتَحَقَ بِالنَّصَارَى فِي الشَّامِ.

عَاشَ سَلمَانُ مَعَ أَحْبَارِ النَّصَارَى، فَتَعَلَّمَ مِنهُم، وَلَكِنَّهُ رَأَى أَنَّ بَعضَهُم كَانَ يَكْنِزُ أَمْوَالَ الصَّدَقَاتِ، فَفَضَحَهُم، وَانتَقَلَ بَينَ عُلَمَاءِ الدِّينِ فِي المَوصِلِ وَنَصِيبِينَ وَعَمُّورِيَّةَ، وَكُلَّمَا مَاتَ أَحَدُهُم كَانَ يُوصِيهِ بِالعَالِمِ الصَّالِحِ الَّذِي يَلِيهِ.

فِي عَمُّورِيَّةَ، أَخْبَرَهُ أَحَدُ العُلَمَاءِ بِأَنَّ نَبِيًّا سَيُبعَثُ فِي أَرْضِ العَرَبِ، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ، وَأَعْطَى أَمْوَالَهُ لِتُجَّارٍ مِنْ قَبِيلَةِ كَلْبٍ لِيَحمِلُوهُ إِلَى العَرَبِ، وَلَكِنَّهُم خَانُوهُ وَبَاعُوهُ عَبْدًا لِيَهُودِيٍّ فِي وَادِي القُرَى. ثُمَّ بِيعَ لِيَهُودِيٍّ آخَرَ فِي المَدِينَةِ، وَهُنَاكَ لَقِيَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ، فَتَأَكَّدَ مِنْ عَلَامَاتِهِ، وَأَسلَمَ، وَعَاشَ فِي صُحبَتِهِ حَتَّى صَارَ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ.

إنجيل برنابا

لقد شهدت التوراة والإنجيل تحريفات كبيرة، مما أسهم في إخفاء البشارات المتعلّقة بنبوّة سيّدنا محمّد ﷺ، التي كانت موجودة بوضوح في الكتابين قبل بعثته ﷺ، وكان العديد من علماء اليهود والنصارى يعلمون بتلك البشارات، إلا أنّهم كانوا ينكرونها بسبب تحريفهم للكتب السماويّة، باستثناء من عصمهم الله.

بعد مرور ثلاثة قرون من ظهور المسيحيّة اعتمدت المجامع الرسميّة أربعة أناجيل من بين نحو سبعين إنجيلاً. كانت الأناجيل الأخرى قد اعتُبرت غير قانونيّة وتمّ تحريم قراءتها، ولم تكن هذه الأناجيل متّفقة فيما بينها بل كانت تحتوي على تضارب كبير.

تمّ ذكر إنجيل برنابا في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، أي قبل ظهور النّبيّ سيّدنا محمّد ﷺ. وقد أُلّف هذا الإنجيل على يد برنابا، أحد أتباع المسيح، الذي كان ينشر دعوته.

في عام ٣٦٦م، أصدر البابا دماسس أمرًا بمنع قراءة إنجيل برنابا، وبعد ذلك في عام ٣٨٢م، أصدر مجلس الكنائس الغربيّة القرار نفسه، تلاه في عام ٤٦٥م البابا أنوسنت، رغم محاولات الكنيسة إخفاء إنجيل برنابا، فقد كشفت العناية الإلهيّة عنه عبر الرّاهب فرامينو في مكتبة البابا في القرن الخامس عشر. وكان هذا الإنجيل يشير بوضوح إلى أنّ عيسى عليه السلام هو رسول الله، وأنّ الرسول المنتظر هو سيّدنا محمّد ﷺ. كما أشار إلى أنّ المسيح لم يُصلب، بل رُفع إلى السماء، وأنّ الذي صُلب كان يهوذا الأسخريوطي.

بعد اكتشاف هذا الإنجيل، قامت الكنيسة بنكرانه، رغم أنّه يُعتبر من أقدم الأناجيل وأكثرها توافقًا مع الحقائق الواردة في القرآن الكريم. وقد احتوى إنجيل برنابا على العديد من المفاهيم التوحيدية والعقائد الإسلاميّة، وهو أقرب الأناجيل إلى ما ورد في الكتاب المقدّس الصحيح. رفض النصارى هذا الإنجيل لأسباب متعدّدة، منها:

١. تصريح برنابا بأنّ المسيح عليه السلام هو إنسان، وليس إلهًا أو ابن إله.
٢. إشارته إلى أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق كما يزعم اليهود.
٣. تنبؤه بظهور النّبيّ محمّد ﷺ في عدّة مواضع من الإنجيل.
٤. التأكيد على أنّ المسيح لم يُصلب بل رُفع إلى السماء، وأنّ يهوذا هو من صُلب بدلاً منه.

رغم أنّ هذا الإنجيل يعارض الأناجيل الأربعة المعتمدة، إلا أنّ الكنيسة لا تعترف به وتصرّ على أنّه مزوّر. ولكنّ الاكتشافات الحديثة، مثل المخطوطة الأصليّة لإنجيل برنابا التي تمّ العثور عليها في تركيا عام ٢٠٠٠م، تثبت أنّ هذا الإنجيل يعود إلى القرن الخامس الميلاديّ، أي قبل بعثة النّبيّ ﷺ بنحو مئة عام.

في السّلوك

الإشارة: الخروج عن العادات وترك الأمور المألوفات كلاهما شاقّ على النّفوس إلا على الذين هدى الله، ولذلك كان خرق العوائد هو الفصل بين الخصوص والعموم، ومفتاح لخازن العلوم والفهوم. فمن لم يخرق عوائد نفسه فلا يطمع أن يدخل حضرة قدسه. وفي الحكم: "كيف يخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد" وهو الميدان الذي تحقّق به سير السّائرين. وفي الحكم: "لولا ميادينُ النّفوس ما تحقّق سير السّائرين" وهو عند شيوخ التّربية ميزان يتميّز به من يتّبع الرّسول ويلزم طريقه إلى الوصول ممّن ينقلب على عقبيه، فمن رأوه خرق عوائد نفسه، وزهد في ملبسه وجنسه، تحقّقوا بدخوله حضرة قدسه، إلّا مَن سبق له الحرمان والعياذ بالله من الخذلان، ومن رأوه وقف مع العادات، وركن إلى المألوفات، ومال إلى الرُّخَص والتّأويلات، علموا أنّ مقامه مقام أهل الحجاب، يأخذ أجره من وراء الباب، ولا نصيب له في الدّخول مع الأحباب. وأيضًا عند تخالف الآثار وتنقّلات الأطوار، يظهر الإقرار من الإنكار. أهلُ الإقرار عارفون في كلّ حال، يدورون مع رياح الأقدار حيث سارت، ويسيرون معها حيث سارت، وأهل الإنكار جاهلون بالله في كلّ حال، معترضون عليه عند اختلاف الأحوال، نعوذ بالله من الضّلال. ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

الإشارة: في الآية إشارة إلى أنّ ترك التصريح من كمال الأدب، وفي الحكم: "ربّما دلّهم الأدب على ترك الطّلب، كيف يكون دعاؤك اللّاحق سببًا في قضائه السّابق؟! جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل". فإذا تمنّيت شيئًا وتوقّفت على أمر فاصبر وتأدّب واقتد بنبيّك ﷺ حتّى يعطيك ما ترضى، أو يعوضّك منها مقام الرّضا وفي المسألة كلام. والتّحقيق أن ينظر إلى ما ينشرح به صدره في الوقت، فإن انشرح للدّعاء دعا، وإن انقبض عن الدّعاء سكت. والله يرزق من يشاء بغير حساب ولا علّة ولا أسباب.

الإشارة: ممّا جرت به سُنّة الله تعالى في خلقه أنّ أهل الحقيقة منكورون عند أهل الشّريعة، أو تقول: علماء الباطن منكورون عند علماء الظّاهر، يقابلونهم بالإذاية والإنكار، مع أنّهم يعلمون أنّ الحقيقة حقّ من ربّهم، وأنّ علم الباطن حقّ لقوله ﷺ: ﴿إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللهِ تعالى، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لا يُنْكِرُهُ إِلَّا أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللهِ تَعَالَى﴾[1]. أي أهل الغفلة.

وروي عنه ﷺ أنّه قال: ﴿وَإِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، لِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ﴾[2].

قِيلَ: مَعْنَى الظَّهْرِ وَالْبَطْنِ: التِّلاوَةُ وَالتَّفَهُّمُ، وكَأَنَّهُ يَقُولُ أنّ لِكُلِّ آيَةٍ ظَاهِرٌ، وَهُوَ أَنْ يَقْرَأَهَا كَمَا أُنْزِلَتْ، وَبَاطِنٌ وَهُوَ التَّدَبُّرُ وَالتَّفَكُّرُ.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

اللَّهُمَّ أَرِنا الحَقَّ حَقًّا وارزُقْنا اتِّباعَهُ، وَأَرِنا الباطِلَ باطِلاً وارزُقْنا اجْتِنابَهُ، ولا تَجْعَلْهُ عَلينا مُتَشابِهًا فَنتَّبِع الهَوى.

(١) رواه السلميّ في الأربعين في التصوف، عن أبي هريرة، باب: إباحة الكلام في باطن العلم وحقيقته.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ٥١٤٩، مسند: عبد الله بن مسعود، الحديث إسناده صحيح.